معالم المنهج التربوي في مواجهة التحديات الفكرية المعاصرة
من خلال تفسير العلامة الدوسري

إعداد

ضاري عثمان الزهاميل

معيد عضو بعثة بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية

في جامعة الكويت

وطالب دراسات عليا بكلية معارف الوحي والعلوم الإنسانية

بالجامعة الإسلامية العالمية–ماليزيا

الأستاذ الدكتور جمال أحمد بادي

أستاذ بكلية معارف الوحي والعلوم الإنسانية

بالجامعة الإسلامية العالمية–ماليزيا

الملخص

من المتقرر أن الأمة مستهدفة في عقيدتها وأخلاقها من قبل أعدائها بالكيد والمكر والتحريف، مما يشكل تحديًّا فكريًّا تجب مواجهته، وأعداء الأمس هم أعداء اليوم، وفي مقدمتهم اليهود وأدواتهم من المنافقين، وتتجدد تلك التحديات، وإن أخذت صورًا مختلفة ومسميات جديدة، ومن القلة التي تميزت بمواجهة تلك التحديات الفكرية وفق رؤية تربوية إيمانية تنطلق من نصوص القرآن وتُؤسس عليها، الشيخ عبدالرحمن الدوسري، وتكمن إشكالية البحث في أنه قد غُفل عن تراثه المتميز في هذا الباب، فهو يمتلك مفاتيح العلم الشرعي وأدواته، مع اطلاعه الواسع على مشكلات عصره، وخبرته بمخططات الأعداء، وتجربته الدعوية العملية في مخالطة الشباب والتعرف على احتياجاتهم النفسية والتربوية، ولذلك جاء تفسيره صفوة الآثار والمفاهيم نموذجًا تربويًّا فذا يصلح لمواجهة التحديات الفكرية المعاصرة، وبالرغم من ذلك التميز إلا أنه لم ينل حظه من البحث والدراسة. وتفترض هذه الورقة إمكانية استقراء منهج تربوي إيماني من تقريرات الشيخ في تفسيره، يصلح أن يكون أساسًا استراتيجيًّا لمواجهة التحديات الفكرية المعاصرة. لذا تحاول هذه الورقة تسليط الضوء على المعالم التربوية في منهج الدوسري من خلال تفسيره صفوة الآثار والمفاهيم لينتفع به الأساتذة والدعاة والمربون. وقد استُخدم في هذا البحث المنهجين الاستقرائي والتحليلي لبناء وتقرير معالم ذلك المنهج التربوي السامق. وباستقراء تفسيره يمكن حصر تلك المعالم التربوية في ركيزتين أساسيتين: الأولى: تحقيق العبودية لله رب العالمين بمفهومها الشامل الصحيح. والثانية: استقلالية الشخصية المسلمة الباعثة على الفخر والاعتزاز. وكان من أهم نتائج هذه الورقة البحثية: أن تحقيق العبودية بمفهومها الشامل هو سبيل النجاة من كافة الشرور، وفيه الوقاية للفرد والمجتمع من الانخداع بما يروجه ويبثه شياطين الإنس بوسائلهم المتنوعة من المذاهب الهدامة المفسدة للعقيدة والسلوك. وأنه لا بد للمسلم أن يواجه التحديات الفكرية بشخصية إسلامية متحررة مستقلة، تحصر استمدادها لهداها في وحي الله، وإلا فإنها ستتأثر بهذه التحديات وتكيف الحياة على نسقها، وبالتالي تحصل فجوة بين الاعتقاد الديني والسلوك الحياتي.

الكلمات المفتاحية:

التربية الإيمانية، التحديات الفكرية، المنهج القرآني، تحقيق العبودية، الاستقلالية.

ABSTRACT

It is evident that the Ummah is targeted by its enemies in terms of creed and morals through plotting, planning, and distortion, which poses an ideological challenge that needs to be addressed. The enemies of yesterday are those of today, the first of whom are the Jews and their stooges – the hypocrites. These challenges frequently resurface, despite taking on various forms and new names. Among the few who were outstanding in facing these ideological challenges in accordance with a īmān-centric pedagogical view, based on and abiding by the scriptures of the Qur'ān, is Sheikh 'Abdul-Raḥmān Al-Dawsarī. The problem of the study is that his unique legacy in this regard has been neglected. He possesses the keys and tools of religious knowledge, has a vast understanding of contemporary problems, has experience in the plots of the enemies, and has practical experience in carrying out da'wah among the youth, knowing their psychological and pedagogical needs. Hence, his Qur'ānic exegesis Ṣafwat Al-Āthār wa Al-Mafāhīm represents an example of good pedagogy, making it suitable to face contemporary ideological challenges. Despite its uniqueness, it has not been given due study and perusal. The aim of this paper is to derive the īmān-centric pedagogical approach from the Sheikh's statements in his Qur'ānic exegesis, making it suitable as a strategic basis to tackle contemporary ideological challenges. Therefore, this paper attempts to shed the light on the pedagogical aspects of Al-Dawsarī's appraoch through his Qur'ānic exegesis Ṣafwat Al-Āthār wa Al-Mafāhīm so it may be beneficial for lecturers, Islamic propagators, and mentors. This study applied both inductive and analytical approaches in order to construct and determine the characteristics of that esteemed pedagogical approach. By perusing his Qur'ānic exegesis, these pedagogical aspects can be confined to two main points: The first is attaining the true submission to Allah, the Lord of Worlds, in a comprehensive manner; and the second is the independence of the Muslim character on the basis of pride and honour. The main results of this research paper were: attaining submission ('ubūdīyah) in its comprehensive manner is the saviour from all evil, and protects individuals and society from being tricked by things propagated by human devils through their various media, such as destructive ideologies that spoil one's creed and morals. Also, Muslims need to confront ideological challenges through their independent, disengaged Muslim character, confining its guidance to the revelation from Allah, otherwise it will be influenced by these challenges and will adjust according to them, hence creating a gap between religious creed and daily behaviour.

المقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

من المتقرر أن الأمة مستهدفة في عقيدتها وأخلاقها من قبل أعدائها بالكيد والمكر والتحريف، مما يشكل تحديا فكريا تجب مواجهته، وأعداء الأمس هم أعداء اليوم، وفي مقدمتهم اليهود وأدواتهم من المنافقين، وتتجدد تلك التحديات وإن أخذت صورًا مختلفة ومسميات جديدة[1].

ومن القلة التي تميزت بمواجهة تلك التحديات الفكرية وفق رؤية تربوية إيمانية تنطلق من نصوص القرآن وتُؤسس عليها، الشيخ عبدالرحمن الدوسري -رحمه الله-، فله جهد علمي متميز في تفسيره صفوة الآثار والمفاهيم من تفسير القرآن العظيم، في التصدي للتحديات الفكرية المعاصرة.

وللأسف الشديد لم يتم التعرض لهذا التراث بالبحث والدراسة والتنقيب بالرغم من أهميته العلمية، وإمكانية الاستفادة منه؛ فلذلك تحاول هذه الدراسة تسليط الضوء على معالم المنهج التربوي من خلال تفسيره لينتفع به الأساتذة والدعاة والمربون.

وتفترض هذه الدراسة إمكانية استقراء منهج تربوي إيماني من تقريرات الشيخ في تفسيره. كما تفترض وتجتهد في إثبات أن ذلك المنهج واضح المعالم، وجليّ في أصوله وأسسه، ويصلح أن يعمم ويوظف في مواجهة كافة التحديات الفكرية التي تستهدف عقول وأفئدة شباب المسلمين اليوم. وباستقراء تفسيره يمكن حصر تلك المعالم التربوية في ركيزتين أساسيتين: الأولى: تحقيق العبودية لله رب العالمين بمفهومها الشامل الصحيح. والثانية: استقلالية الشخصية المسلمة الباعثة على الفخر والاعتزاز.

---

(١) قال الدوسري عند تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ....﴾ الآية. [آل عمران: ٢١]: ".. وقد أتى بصيغة المضارع المستلزم للدوام، لأن الكفر يتجدد، وتتجدد أنواعه." الدوسري، صفوة الآثار والمفاهيم، ج٤، ص٨٢.

مشكلة الدراسة:

بالرغم من تميز الدوسري وتفسيره إلا أنه لم ينل حظه من البحث والدراسة في الناحية التربوية المرتكزة على تحقيق العبودية بالمفهوم الشامل، والتي تعطي الشخصية المسلمة استقلاليتها وعزتها الإيمانية، وفي المقابل عند النظر في حواضن تنشئة الأجيال المسلمة يُلاحظ عليها غلبة أحد جانبين: إما التركيز على حقائق القرآن دون ربطها بالواقع والاستفادة منها في مواجهة التحديات الفكرية المتنوعة، أو مواجهة التحديات الفكرية بفكر مجرد لا ينطلق من الحقائق القرآنية، ولذلك جاءت هذه الدراسة لوضع أحد الحلول لهذه الإشكالية من خلال إبراز أهم معالم المنهج التربوي في تفسير الدوسري لمواجهة تلك التحديات، مع إمكانية تطبيق تلك المعالم في المحاضن الإسلامية.

أسئلة الدراسة:

١- ما المفهوم الشامل والصحيح لتحقيق العبودية لله تعالى؟

٢- ما دور تحقيق العبودية بمفهومها الشامل في مواجهة التحديات المعاصرة؟

٣- ما الأسس التربوية الإيمانية التي من خلالها تتم صياغة الشخصية الإسلامية المستقلة العصية على التأثر والذوبان في غيرها من المناهج الأرضية؟

أهداف الدراسة:

١- إبراز المفهوم الشامل والصحيح لتحقيق العبودية لله تعالى.

٢- بيان الدور التربوي لتحقيق العبودية بمفهومها الشامل في مواجهة التحديات المعاصرة من خلال تفسير صفوة الآثار.

٣- تقرير الأسس التربوية الإيمانية التي من خلالها تتم صياغة الشخصية الإسلامية المستقلة من خلال تفسير صفوة الآثار.

أهمية الدراسة:

أ- أهمية نظرية:

تكمن أهمية الدراسة النظرية في امتلاك الدوسري لمفاتيح العلم الشرعي وأدواته، مع اطلاعه الواسع على مشكلات عصره، وخبرته بمخططات الأعداء، وتجربته الدعوية العملية

في مخالطة الشباب والتعرف على احتياجاتهم النفسية والتربوية، فجاء تفسيره صفوة الآثار والمفاهيم نموذجًا تربويًّا فذا يصلح لمواجهة التحديات الفكرية المعاصرة. ورغم ذلك التميز إلا أنه لم ينل حظه من البحث والدراسة.

ب- أهمية تطبيقية:

هذه المعالم التربوية التي تُركز عليها الدراسة، يمكن تطبيقها في المراكز والمحاضن الإسلامية والمعاهد الدينية للحفاظ على النشء الإسلامي من الغزو الفكري، بل وإعداده لمواجهة التحديات الفكرية المتنوعة والمتجددة، وهذا ما يرنو إليه الباحثان.

حدود الدراسة:

يتضح من عنوان الدراسة أنها محددة بالمعالم التربوية في تفسير: صفوة الآثار والمفاهيم من تفسير القرآن العظيم للعلامة عبدالرحمن الدوسري المتوفى سنة (١٣٩٩هـ/١٩٧٩م)، كونه أهم كتبه، بالإضافة إلى أن الكثير من مؤلفات الشيخ تم استلالها من التفسير.

منهج الدراسة:

ستنتهج الدراسة المنهجين الاستقرائي والتحليلي لبناء وتقرير معالم ذلك المنهج التربوي السامق.

الدراسات السابقة:

يمكن تقسيم الدراسات السابقة إلى محورين:

المحور الأول: دراسات تتعلق بسيرته:

١. **(نبذة مختصرة عن حياة الداعية الإسلامي عبدالرحمن بن محمد الدوسري)**[1] لأحمد بن عبدالعزيز الحصين، من تلاميذ الدوسري، نُشر بعد وفاة الشيخ بست سنوات.

(١) أحمد بن عبدالعزيز الحصين، نبذة مختصرة عن حياة الداعية الإسلامي عبدالرحمن بن محمد الدوسري (بريدة: مطابع شركة السلمان والفريح، ١٤٠٥هـ)، وفي نهاية كتابتي لهذه الدراسة اطلعت على طبعة جديدة لهذا الكتاب هي الطبعة الرابعة ١٤٣٥هـ/٢٠١٤م، لم يغير فيها المؤلف شيئا يذكر سوى أن قام بتغيير العنوان إلى: (إتحاف اللبيب في سيرة الداعية الشيخ عبدالرحمن بن محمد الدوسري)، ولم يُحدّث الكاتب أيًّا من المعلومات التي في الطبعة الأولى.

كتيب يقع في ٧٥ صفحة من القطع المتوسط، وهو عبارة عن ترجمة مختصرة للدوسري ذكر فيها نسبه ونشأته وسيرته العلمية والعملية، ومواقف من دعوته ونشاطه، ووفاته، وألحق ذلك بجداول لمؤلفات الشيخ ومحاضراته وقصائده. والكتاب كما يظهر خالص في ترجمة الشيخ وسيرته.

٢. (**سيرة الشيخ العلامة عبدالرحمن بن محمد الدوسري**) لسليمان بن ناصر الطيار[(١)]، وقد بذل فيها صاحبها جهدًا واضحًا في تتبع أخبار الشيخ وسيرته، والالتقاء بأصحابه وتلامذته وابنه، والأخذ عنهم مشافهة، ولعله أول من تكلم عن الشيخ برسالة جامعية، وسهّل على الباحثين من بعده الشيء الكثير فيما يخص الأعمال العلمية الكاملة للشيخ الدوسري المطبوع منها والمخطوط بل والمسموع، ويتضح من دراسته أنه اعتمد على جمع كل ما يتعلق بالشيخ الدوسري من سيرة وأخبار ونتاج علمي، لكن تلك السيرة على أهميتها لم تتناول ما أسهمت به هذه الورقة.

المحور الثاني: دراسات تتعلق بتفسيره:

١. (**منهج الدوسري في تفسيره صفوة الآثار والمفاهيم**)[(٢)] لمحمد الربيعة: وهي رسالة ماجستير تقع في ٦٦٨ صفحة، وقد بذل المؤلف جهدا علميا، واستفاد من رسالة الطيار المشار إليها آنفًا، وقد هدف من رسالته إلى التعرف على تفسير الدوسري والاطلاع على ما فيه من أصالة وتجديد، وإبرازه للدعاة وطلبة العلم وتعريفهم بمنهج الدوسري وطريقته في هذا التفسير، ومن عمله يتبين أنه اتخذ المنهج الاستقرائي والتحليلي لتحقيق أهدافه، وقد أشار في خاتمة الرسالة إلى وجوب الاعتناء بهذا التفسير العصري ونشره والاستفادة منه، ولكن رسالته أوسع من الموضوع المحدد الذي ستتناوله هذه الورقة

(١) سليمان بن ناصر الطيار، سيرة الشيخ العلامة عبدالرحمن بن محمد الدوسري (الرياض: دار ابن الأثير للنشر والتوزيع، ط١، ١٤٣٥هـ/٢٠١٤م). وهي وإن طبعت حديثًا إلا أنها رسالة ماجستير تقدم بها للمعهد العالي للدعوة الإسلامية بالرياض، التابع لجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية قبل عشرين عامًا تقريبًا كما جاء في ص٦ من الكتاب نفسه، ولذلك تم تقديمها في هذا الموضع.

(٢) الربيعة، محمد بن عبدالله. (١٤١٦هـ). منهج الدوسري في تفسيره: صفوة الآثار والمفاهيم. رسالة ماجستير غير منشورة، كلية أصول الدين، قسم القرآن وعلومه، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

فلذلك أشار إليه[1]، و لم يعطه المساحة الكافية من الدراسة؛ وذلك لطبيعة دراسته والهدف المنشود منها، كما أن هذه الدراسة تحقق ما ذكره في خاتمة رسالته.

٢. (**جهود الشيخ عبدالرحمن الدوسري في توضيح عقيدة السلف والدفاع عنها**)[2] ليحيى مباركي، وهي رسالة ماجستير جاءت لتركز على شيء محدد في تفسير الدوسري، فقد قام مؤلفها بالتعريف بجهود الشيخ في توضيح عقيدة السلف، وذكر جهوده في الدفاع عنها؛ من خلال الرد على المتكلمين، والصوفية، والرافضة والباطنية، وقد صرّح المؤلف في دراسته أنه اعتمد في الغالب على تفسير الدوسري، ويظهر استخدامه لمنهج الاستقراء والتحليل، ومن أهم النتائج التي انتهى إليها: أن عقيدة الشيخ الدوسري هي عقيدة السلف نفسها، وأنه دافع عنها وبيّن عوار المخالفين لها، وقد أوصى بالاهتمام بتحقيق تفسير الدوسري، وهذه الدراسة كسابقتها في سدّها لجزء من جهود الشيخ، وقد ركّزت على جهوده المتعلقة بآرائه العقدية، إلا أنه بقي جزء مهم من جهوده التربوية في تصديه للتحديات الفكرية المعاصرة بدون دراسة علمية في حدود اطلاع الباحثين، ولذا جاءت هذه الورقة لتسد ذلك النقص، وتتكامل الدراسات للاستفادة من تراث الدوسري.

التعليق على الدراسات السابقة:

ومما سبق يتبين أن الدراسات اعتنت بجانبين: سيرة الشيخ، وتفسيره، والذي تتفق فيه هذه الدراسة مع الدراسات السابقة هو التركيز على تفسير الدوسري، وتتميز عنها بالتركيز على نقطة جوهرية تحديدًا: وهي المعالم التربوية التي من خلالها تتم مواجهة التحديات الفكرية المعاصرة، وجمعها واستنباطها من تفسير الدوسري، وعرضها وتحليلها للاستفادة منها وتطبيقها على المراكز العلمية والمدارس المهتمة بالنشء الإسلامي، كما أن الدراسة لم تتطرق لسيرة الشيخ اكتفاء بما كتب في تلك الدراسات، خصوصًا وأن حدود صفحات البحث لا تحتمل

(١) الربيعة، منهج الدوسري في تفسيره صفوة الآثار والمفاهيم، ص٥٠٠-٥١٢.

(٢) سير مباركي، يحيى بن محمد بن أحمد. (١٤٣٠هـ/٢٠٠٨م). جهود الشيخ عبدالرحمن الدوسري في توضيح عقيدة السلف والدفاع عنها. رسالة ماجستير، كلية الدعوة وأصول الدين، قسم العقيدة، جامعة أم القرى بمكة المكرمة.

ذلك، كما تسلط الدراسة الضوء على جانب المعالم التربوية فقط، ولم تتطرق لمنهجية الشيخ في تفسيره، وموارده فيه، وآرائه العقدية والفقهية ونحو ذلك مما ذُكر في الدراسات السابقة، وهذا من أوجه الاختلافات بين هذه الدراسة وسابقاتها.

هيكل الدراسة:

الفصل الأول: خطة البحث وهيكله العام:

المقدمة.

مشكلة الدراسة.

أسئلة الدراسة.

أهداف الدراسة.

أهمية الدراسة.

منهج الدراسة.

الدراسات السابقة.

هيكل الدراسة.

الفصل الثاني: تحقيق العبودية، مفهومها الشامل ودورها التربوي:

المبحث الأول: المفهوم الشامل لتحقيق العبودية.

المطلب الأول: الإيمان بالغيب هو أساس التربية القرآنية.

المطلب الثاني: حماية العقيدة والذب عنها جزء من مفهوم تحقيقها.

المطلب الثالث: العقيدة الصحيحة تحرر معتنقيها من كل صور الرق المعنوي.

المطلب الرابع: الاهتمام بالصلاة كمصدر للقوة الروحية.

المبحث الثاني: الدور التربوي لتحقيق العبودية في مواجهة التحديات المعاصرة.

المطلب الأول: تحقيق العبودية يسهم في الاجتماع ويقضي على العصبيات.

المطلب الثاني: تحقيق العبودية يقي من الجهل المركب الذي هو أصل كل شر وضلال.

المطلب الثالث: تحقيق العبودية ينجي من الانحلال الخلقي فيثبت الإيمان.

المطلب الرابع: تحقيق العبودية يمنع وجود الطواغيت، ويحرر من رق العبودية لغير الله.

المطلب الخامس: تحقيق العبودية أساس النهضة.

المطلب السادس: تحقيق العبودية يحقق الاستقامة والتوازن الداخلي.

الفصل الثالث: أسس استقلالية الشخصية الإسلامية

المبحث الأول: استلهام هداية القرآن.

المبحث الثاني: الاعتزاز بالدين، والاكتفاء بهدايته، وصلاحيته لكل زمان.

المبحث الثالث: أسلمة العلوم.

المبحث الرابع: ربط المنهج التربوي بالعقيدة الإسلامية وقيمها.

الخاتمة: وفيها أهم النتائج، والتوصيات.

المصادر والمراجع.

الفصل الثاني: تحقيق العبودية، المفهوم الشامل والدور التربوي

المبحث الأول: المفهوم الشامل لتحقيق العبودية:

من أهم المعالم التربوية التي يركز عليها الدوسري في إعداد الشخصية المسلمة: تحقيق العبودية لله رب العالمين، وينطلق الدوسري في هذا المعلم من حقيقة أن علم القرآن كله مجموع في سورة الفاتحة، وعلم الفاتحة مجموع في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، قال ابن تيمية: "وعلم القرآن جمع في الفاتحة، وعلم الفاتحة في هذين الأصلين"(١)، وقال: "هذه الآية جمعت جميع أسرار القرآن"(٢).

فقام الدوسري بتطبيق عملي لذلك، حتى خرج تفسيره لسورة الفاتحة في مجلد واحد عدد صفحاته ٣٨٤ صفحة، منها ٢٩٤ صفحة في تفسير هذه الآية.

فجعل تحقيق العبودية بمفهومها الشامل هو سبيل النجاة من كافة الشرور، وخصوصًا في هذا العصر الذي تنشط فيه الشياطين بوسائل متنوعة لإفساد العقيدة والسلوك، يقول الدوسري: ".. ولا نجاة اليوم من همزات شياطين الإنس وطواغيتهم إلا بتحقيق ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ بجميع معانيها ومبانيها، لا سيما في هذا العصر، عصر التهريج والتلبيس والمغالطات التي تحملها أمواج الأثير في الإذاعات وتبثها دور الطبع والنشر من كل حدب وصوب، ممن غايتهم العلو في الأرض واللعب بمقدرات الشعوب تحت ستار الأوهام والأباطيل،..."(٣). ويمكن إظهار المفهوم الشامل لتحقيق العبودية من خلال المطالب التالية:

---

(١) أحمد بن عبدالحليم بن تيمية، جامع الرسائل (الرياض: دار العطاء، ط١، ١٤٢٢ه/٢٠٠١م)، ج١، ص٩١. وقد نقل الدوسري هذه العبارة عن ابن تيمية، انظر: الدوسري، صفوة الآثار والمفاهيم، ج٨، ص٢٥٢.

(٢) أحمد بن عبدالحليم بن تيمية، مجموع الفتاوى (المدينة النبوية: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، د.ط، ١٤١٦ه/١٩٩٥م)، ج١، ص٩٠. وقال عنها في موضع آخر: "كلام جامع محيط أولًا وآخرًا، لا يخرج عنه شيء". ج١، ص٣٦. وانظر: إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي، تفسير القرآن العظيم (دار طيبة للنشر والتوزيع، د.ط، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م)، ج١، ص١٣٤.

(٣) الدوسري، صفوة الآثار والمفاهيم، ج١، ص٦٤.

المطلب الأول: الإيمان بالغيب هو أساس التربية القرآنية:

الإيمان بالغيب هو أساس عقائدي ووازع ديني بُنيت عليه التربية القرآنية[1]، ففي إشارة الدوسري إلى الحكمة من تحريم الله للصيد حال الإحرام قال: ".. كشف الله تعليل حكمة الابتلاء بالصيد بقوله: ﴿لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ لأن مخافة الله بالغيب هي ركيزة العقيدة وأساسها في قلب المسلم المؤمن، فهي القاعدة الأساسية التي يقوم عليها بناء العقيدة وبناء السلوك، وتُناط بها أمانة التكاليف..، إن الناس لا يرون الله ولكن يرونه في نفوسهم حين يؤمنون ويشعرون بقربه منهم، ورؤيته لهم ونفوذ علمه فيهم فيقفون عند حدوده."[2].

فالعقيدة بشكل عام، وبالأخص الإيمان بالغيب، هي قاعدة الانطلاق لسلوك المسلم وأخلاقه، وقد ذكّر الدوسري بمراقبة الله للإنسان واطلاعه على جميع أحواله، مما يوجب عليه الحذر من ارتكاب المعاصي، والحرص على إخلاص النية والتزام حدود الله، وأشار إلى ما في مرتبة الإحسان من تأثير على السلوك الإنساني؛ لأن صاحبها يوقن بمشاهدة الله له وعلمه بظاهر أمره وباطنه، فيمنعه ذلك من مخالفته، ولذلك تقوم تربية القرآن للمسلمين على العقيدة، يقول الدوسري: ".. فقد ربط الله سبحانه أوامره وجميع تشريعاته بالعقيدة ليلتزم عباده بالتقوى في كل شيء، ويكونوا حراسًا على ثغرات أنفسهم من غزو شياطين الجن والإنس بالألوان الجاهلية المختلفة، سواء ما ترسب منها بواسطة الأهواء والشهوات، أو ما تجدده الشياطين من الشبهات والأباطيل والمغريات على الأطماع والأنانيات المختلفة"[3]، فقيام التربية على أساس العقيدة هو الذي يحرس البيئة المجتمعية من تسلل الشياطين بجميع ما يبثونه وينشرونه من وسائل تثير الشهوات، وتنشر الشبهات.

ولتأكيد قوة الوازع الديني على النفوس، وإظهار أهميته، ذكر الدوسري أن الناس لا تردعهم ضمائرهم ولا قوة الدولة مهما كثرت مخابراتها، فلا يستطيعون تأمين بقعة واحدة

(١) انظر: الدوسري، صفوة الآثار والمفاهيم، ج٦، ص١٤٩-١٥٠.
(٢) الدوسري، صفوة الآثار والمفاهيم، ج٩، ص٣٣٤-٣٣٦. باختصار.
(٣) الدوسري، صفوة الآثار والمفاهيم، ج٥، ص٢١. وانظر: ج٦، ص١٣٧.

زمنًا معينًا بالرغم مما توصلوا إليه من أجهزة رقابية متطورة، ".. ولكن الوازع الديني جعل الكعبة البيت الحرام قيامًا للناس وأمنًا على مدى مئات القرون في وقت إسلام ساكنيه ومجاوريه، لما كانوا على ملة إبراهيم في سابق عهدهم، وفي وقت الجاهلية سابقًا بالوازع الديني لا بوازع الحكم؛ إذ لم يوجد في مكة ملك ولا أمير، وهذا من أعظم الدلائل على أن الوازع الديني لا يعدله أي وازع مرتكز على القوة ولا على التربية الحديثة"[(١)].

فأعظم ما يحرك سلوك الإنسان هو الوازع الديني، والإيمان بالغيب، بخلاف من تقوم سلوكياتهم على قوة الدولة أو على التربية المادية؛ فإذا ذهبت قوة الدولة سقط السلوك الإنساني إلى مستوى الحضيض، وإذا بنى المرء سلوكه على الماديات حركته الأطماع والأنانيات والمصالح الشخصية، فتجده يفتك بالآخرين بلا رحمة لتحقيق المصالح الشخصية.

وهذا هو الفرق بين التربيتين: الإسلامية والمادية، ولذلك قال الدوسري عن أثر الإيمان بالغيب في تربية المسلم: "ومن هنا يدرك المتأمل قوة التربية الإسلامية للنفوس المؤمنة بالغيب..، إن الإيمان الحقيقي بالغيب هو الذي يجعل من ضمير الإنسان رقيبًا باطنيًّا يراقبه في كل عمل ويخوفه من عقوبات الله العاجلة والآجلة"[(٢)]. وهكذا ترتبط العقيدة بالسلوك، ويظهر الفرق بين التربية المادية، والتربية الإيمانية القرآنية التي ترتكز على العقيدة، وتظهر آثارها على سلوك الفرد والمجتمع.

يقول الدوسري: ".. فالإيمان باليوم الآخر من ضروريات الدين، وتتوقف عليه صحة الإيمان بالله وبما جاء منه، وهو الثمرة الثانية من [ثمرة][(٣)] الإيمان بالغيب بعد الإيمان بالله، إذ به تتميز الطبائع الإنسانية عن الطبائع البهيمية، ويحصل قبول جميع الأوامر والنواهي الإلهية والانقياد لها خشية لله ورجاء لما عنده من الفوز العظيم، وبه تتخلص الإنسانية من عبادة الجبت والطاغوت، وعبادة الشهوات والأهواء.."[(٤)].

(١) الدوسري، صفوة الآثار والمفاهيم، ج٩، ص٣٦٥-٣٦٦.
(٢) الدوسري، صفوة الآثار والمفاهيم، ج٨، ص٢٣٠.
(٣) هكذا في الأصل، والصواب: ثمرات.
(٤) الدوسري، صفوة الآثار والمفاهيم، ج٦، ص٥٨٥.

المطلب الثاني: حماية العقيدة والذب عنها جزء من مفهوم تحقيقها:

في حديثه عن تحقيق العبودية ذكر الدوسري أنه يجب على المسلمين حماية عقيدتهم وصيانتها، وأن الحماية تكون: بالاكتفاء بوحي الله عز وجل، والصيانة تكون: بالابتعاد التام عن الملاحدة والمبتدعين وعدم السماع لهم، والقيام بمقارعتهم لمن تأهل لذلك، وقطع كل وسائل الفتنة عن العقيدة، وحفظ الثغور الحسية والمعنوية عن تغلغلهم وتأثيرهم في المجتمع، فإن ضرر المنافق والملحد كما يقول الدوسري: "أشد بكثير من ضرر الكافر الأصلي، وهو أشد فتكًا في الروح من الحرب المعدي للجسم"(١)، وأشار إلى أن القيام بالدعوة ونشر العقيدة زيادة على ما فيه من نفع الناس، فإن فيه وقاية لصاحبه، فهو خير مشغل عن الغزو الفكري.

كما ذكر أن من وسائل تحصين المسلم عن المذاهب الهدامة: استصحاب ذكر نعمة الإسلام، قال(٢): "هذا وإن وجوب استصحاب ذكر نعمة الإسلام ليس مقصورًا على الأوس والخزرج الذين كانوا السبب في نزول هذه الآيات، وإنما هو [على] الوجوب على كل مسلم إلى يوم القيامة، ليكون واقيًا له من تبني المبادئ والمذاهب العصرية التي غزتنا بها اليهودية بتخطيطها الماسوني العميق... وبالإسلام تكون النجاة من الانزلاق في مهاوي تلك المبادئ القومية والمذاهب المادية التي جنّد اليهود جنودًا هائلة لترويجها وتحبيبها،.."(٣).

المطلب الثالث: العقيدة الصحيحة تحرر معتنقيها من كل صور الرق المعنوي:

ويظهر للباحثَيْن أن سبب اهتمام الدوسري بنشر العقيدة وغرس التوحيد في النفوس كأحد سبل مواجهة التحديات الفكرية، أن العقيدة الصحيحة تحرر البشرية من رق العبودية لغير الله، فيقول متحدثًا عن الحكمة من تحريم الشرك: "أن الله سبحانه يوجب

(١) انظر: الدوسري، صفوة الآثار والمفاهيم، ج١، ص١٧٩-١٨٠.

(٢) عند تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾[آل عمران: ١٠٢-١٠٣].

(٣) الدوسري، صفوة الآثار والمفاهيم، ج٤، ص٢٥١.

على بني الإنسان الاستقلال الشخصي في العقل والإرادة لكل فرد منهم، ويحرم عليهم التفريط بشيء من الحرية، فالتوحيد الذي أوجب عليهم سلوكه وهو الذي يناقض الشرك، هو الذي يحرر جميع بني الإنسان من رق العبودية لكل واحد من البشر، ويعصمه من الخوف والخضوع أو التعظيم .. للأصنام الصامتة والناطقة،.. فهكذا التوحيد يملي على صاحبه، وينور قلبه، ويرفع رأسه عاليًا، وإذا اجتمعت البشرية على التوحيد، أفلحت وتحررت من رق الطواغيت، وكذلك إذا قام لأمة التوحيد راية ترفعه فإن به تنتفع جميع البشرية، وترتفع من حالتها الواطئة كما ارتفعت على يد الصحابة لما قامت دولتهم على التوحيد."(١).

وقال في موضع آخر مؤكدا تلك الحقيقة: "توحيد الألوهية هو الذي يحرر النفوس من رق العبودية لغير الله، ويرتفع بها عن الذل لأي مخلوق، وعن الخضوع لأي سلطان باطل، ويحميها من الخوف من أي قوة أو دولة، لما يغرس فيها من عظمة الله، وأنه أكبر من كل شيء، وأنه لا يعجزه أي شيء، ويعمر القلوب بتقوى الله ومراقبته، فيقتلع منها جذور الأنانية والشهوات النفسية،.."(٢).

ولذلك قال في حديثه عن أصحاب الرق المعنوي: "ولا منقذ لهم ولا محرر لنفوسهم من هذا الرق المعنوي إلا الفرار إلى الله بتحقيق عبادته كاملة في جميع شؤون حياتهم، وحصر سيرهم في طريق واحد هو صراطه المستقيم، بالتزامهم لوحيه ومتابعة رسوله – صلى الله عليه وسلم–.."(٣).

فالتوحيد يكون واقيًا للفرد والمجتمع من الانخداع بما يروجه شياطين الإنس ويبثونه من المذاهب الهدامة والمفسدة للأخلاق والتربية، يقول الدوسري: "ولهذا نجد أغلب القرآن

(١) الدوسري، صفوة الآثار والمفاهيم، ج٥، ص٤٠٦. بتصرف يسير. وانظر: ج٦، ص٥٢-٥٣.

(٢) الدوسري، صفوة الآثار والمفاهيم، ج٢، ص٤٨٧. كما أشار إلى أثر الإيمان بأسماء الله الحسنى وصفاته العليا على النفس البشرية.

(٣) الدوسري، صفوة الآثار والمفاهيم، ج١، ص٢٩٨. وإن لم يحققوا العبادة لله، فسيظلون -كما يقول الدوسري-: "يحملون نير العبودية من سائر الأصناف ليس في أعناقهم ولكن في أرواحهم، وسينقادون لجميع أنواع الرق المعنوي بلا نخاس؛ فيكونون أفظع وأحط ممن يقودهم النخاس في رقابهم أو آذانهم، لأن النخاس كامن في قلوبهم ودمائهم".

فيه التركيز على التوحيد الذي لو تمسك به المسلمون لما كانوا ألعوبة للدجاجلة وضحايا للطواغيت،.."[1].

المطلب الرابع: الاهتمام بالصلاة كمصدر للقوة الروحية:

من المعالم التربوية القرآنية التي توقف عندها الدوسري كثيرًا، أمر الشارع بالصلاة في خمسة أوقات في اليوم والليلة، وإيجاب أدائها على أي حال؛ في الصحة والمرض، والأمن والخوف، وذلك لما فيها من تحقيق للتربية الروحية للمسلم، فهي كما يعبر الدوسري: ".. وجبات من الغذاء الروحي وجرعات من الدواء الشافي وجب تكرارها في أوقاتها المكتوبة؛ إذ هي من أعظم روافد العقيدة.. -إلى أن قال- .. وهي أعظم نفعا للمؤمنين من نفع الماء للشجر والنبات، فلا جرم إذا أتم الله نعمته علينا بتيسير الطهارة لأدائها.."[2].

فالصلاة هي الغذاء الروحي للمسلم، وهي أهم الروافد في تشكيل شخصيته، وإمداده بالقوة الروحية، ولذلك أمر الله بها نبيه -صلى الله عليه وسلم- حينما أنزل عليه القرآن: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ۝٤ إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا﴾[المزمل: ١-٥]، فللقيام بأتعاب هذا القول الثقيل، لا بد من رافد ملهم للقوة الروحية التي تربي المرء على التحمل، وسمو النفس، والتضحية والبذل، وهي الصلاة، وسلوك الصراط المستقيم بالابتعاد عن المعاصي والسيئات وترك تسويلات الشياطين وأمانيهم[3].

المبحث الثاني: الدور التربوي لتحقيق العبودية في مواجهة التحديات المعاصرة:

قد تفنن الشيخ عبدالرحمن الدوسري -رحمه الله- في إبراز الأهمية التربوية لتحقيق العبودية، وسأقوم بالإشارة إلى بعض ما ذكره من خلال المطالب التالية:

---

(١) الدوسري، صفوة الآثار والمفاهيم، ج٦، ص٥١٥.

(٢) الدوسري، صفوة الآثار والمفاهيم، ج٨، ص٢٠٦-٢٠٧.

(٣) انظر: الدوسري، صفوة الآثار والمفاهيم، ج٦، ص٤٢٣-٤٢٤، ٤٢٦، ٤٢٩، ٤٣٢-٤٣٤، ٤٤٠، ٤٦٧-٤٦٨، ج٨، ص١٩-٢٠، ج٩، ص١٠٣-١٠٤، ٤٥٣، ٤٧٩. وقد ذكر الدوسري مستطردًا خمسة وخمسين نوعا من العقوبات على المعاصي، انظر: ج٦، ص٤٢٠-٤٦٤.

المطلب الأول: تحقيق العبودية يسهم في اجتماع الكلمة ويقضي على العصبيات والقوميات.

جاء الإسلام ليؤكد على اجتماع الكلمة والوحدة والائتلاف؛ لذا اعتبر الدوسري أن العصبيات تشكل أكبر عائق أمام وحدة الكلمة فقرر أنه: ".. بتحقيق العبودية لا تنشأ العصبيات والقوميات المفرقة بين الأجناس والأقاليم، ولا الحدود المصطنعة،.."[(١)]، وذلك لأن القائمين بهذه العبودية يتوجب عليهم العمل بشكل متواصل للاجتماع والوحدة الدينية، حتى تسود لا إله إلا الله جميع الأرض ولا يعلوها شيء، فلو قام المسلمون بواجبهم الديني لم تعلُها حدود ولا قوميات ولا عصبيات[(٢)]. كما أن عبودية الله توجب على أهلها التآخي والتلاحم والوفاء بالميثاق الإسلامي الذي يربط العربي والأعجمي برباط العبودية، فمن يخرق هذا الميثاق بالعصبيات والقوميات فهو ".. مخلٌّ بعبودية رب العالمين ومناقض لمدلول سورة (الفاتحة)، وقد ظهر التأثير السيئ لذلك في هذا الزمان الذي رجع غالب أهله إلى الجاهلية الأولى، وركسوا في الوثنية من حيث يشعرون ومن حيث لا يشعرون."[(٣)]. فبتحقيق العبودية يتربى المسلم على الوحدة والاجتماع مع إخوانه المسلمين، ويبتعد عما يعكر ذلك من العصبيات والقوميات التي تمزق الأمة وتجعلها أحزابا وأشتاتا.

المطلب الثاني: تحقيق العبودية يقي من الجهل المركب الذي هو أصل كل شر وضلال:

يشير الدوسري إلى حقيقة مهمة وهي أنه بتحقيق الأمة للعبودية تنجو من الجهل المركب الذي يجرها إلى كل شر وضلال، ذلك أن الجهل المركب بجميع أنواعه يستند إلى الاعتقاد الفاسد، والذي هو عدم العلم بالحكم الحقيقي وتصور الحكم الفاسد بدله مع التعصب له، يؤكد هذه الحقيقة فيقول: ".. وعبودية الله تعصم صاحبها من ذلك لاستنارة قلبه بوحي الله وهداه، وعدم التعصب لما يتخيله أو يقذف الناس عليه"[(٤)]. فلو قذفت شياطين الإنس ما تقذفه مما يفسد تصورات الناس من الضلالات والأفكار التي تُظلم

(١) الدوسري، صفوة الآثار والمفاهيم، ج١، ص٦٧.
(٢) انظر: الدوسري، صفوة الآثار والمفاهيم، ج١، ص٦٧-٦٨.
(٣) الدوسري، صفوة الآثار والمفاهيم، ج١، ص٩٥.
(٤) الدوسري، صفوة الآثار والمفاهيم، ج١، ص٩٠.

العقل، فإن المحقق للعبودية تنجلي له تلك الظلمات بنور الوحي، ولا يتعصب لها.

وقد ضرب الدوسري مثالًا للجهل المركب، وهو ما قامت به بعض الفرق من الاستسلام للكفار، وعدم مجاهدتهم بحجة الصبر على البلاء، بخلاف المحقق للعبودية؛ فإنه لا يضعف ولا ينكص عن جهادهم؛ لأن الصبر الممدوح هو المصابرة على جهاد أعداء الله والمرابطة على الثغور لإعلاء كلمته[1].

المطلب الثالث: تحقيق العبودية ينجي من الانحلال الخلقي فيثبت الإيمان:

يتحدث الدوسري عن طغيان المادة في العالم اليوم، وكيف أنه بسببه تنتشر الفوضى الجنسية والانحلال الخلقي، وذلك لضياع الإيمان، والحرمان من عبودية الرحمن، وبسببه يكون الربا هو روح المعاملات وشريان الحياة المادية، وبذلك تنزلق المجتمعات إلى الهاوية؛ لأن هذه الحياة المادية ترتكز على المنفعة والأنانية وانتهاز اللذائذ والشهوات، ولا منقذ لهم من كل ذلك إلا تحقيق العبودية؛ ".. لأنها تعمر القلوب وتشغلها عن أن يغزوها شيء من الثقافات والمبادئ المادية، وتطهرها بالعقيدة الصحيحة التي توجب عليها العدل والرحمة والإحسان، من إطعام المحروم وتشغيل العاطل وتسخير جميع القوى والإمكانيات، وعدم الاعتراف بمال حرام أو كسب، ولا تجيز معاوضة الجهد الشاق بأجر بخس، ولا مكافأة العمل التافه بأجر كبير،.."[2]، إلى آخر ما ذكره من فضائل العبودية التي تحث المرء على كل فضيلة وعدل، وتحجزه عن الرذائل والظلم، حتى لا يكون عبدا لشياطين الجن والإنس.

يقول الدوسري كاشفًا عن سبب انهيار الدول العظمى: "والتاريخ يقرر أن الدول الكبيرة لا تضمر ولا تذوي ولا تنكمش، ولكنها تنهار كما ينهار عمود الخشب الضخم، الذي نخر السوس لبه، فبهذا المثل انهارت الدول الكبرى أمام ضعفاء المسلمين في المادة، فمفاسد الأخلاق، والانغماس في الترف، والتمادي في الأنانية، هو الذي يجعل صورهم

(١) الدوسري، صفوة الآثار والمفاهيم، ج١، ص٨٩-٩٠.

(٢) الدوسري، صفوة الآثار والمفاهيم، ج١، ص٩٠-٩١.

كالأشباح لا حقيقة تحتها، قشور لا لب فيها،.."[١].

فبتحقيق العبودية يتربى المرء على الحفاظ على الأخلاق الإسلامية النبيلة، ويرفُض الأخلاق المادية التي تدمر المجتمعات. ومعلوم أن الأخلاق عنوان الإيمان وركيزته التي بها يثبت ويتحقق.

المطلب الرابع: تحقيق العبودية يمنع وجود الطواغيت، ويحرر من رق العبودية لغير الله.

بيّن الدوسري خطورة الطواغيت ومدى تأثيرهم على التصورات والأفكار، فقال: "... ولشدة تأثير الطاغية على العقول، نص الله في كتابه على أن الفتنة أشد من القتل وأكبر"[٢].

كما أكد أن ظهور من ينبذون القرآن ويحتكمون إلى الطاغوت، ويجلبون إلينا إلحاد ومبادئ الشرق والغرب، التي تمحق المال والحرية والشرف، إنما هو بسبب الإعراض عن العقيدة التي تحررهم من رق الطواغيت، وبسبب الإعراض عن عبودية الله -عز وجل-، ".. لأن تحقيق عبودية الله يضمن إشراق العقيدة، وعمق الإخلاص لله في النفوس يعصم صاحبه من احتيال شياطين الإنس له، وصدق الجهاد في سبيله ابتغاء مرضاته يحول دون ظهورهم لفتنة الناس، فإذا لم تتحقق العبودية بذلك حصل نقيضها من تلك الظلمات الوثنية"[٣]. فتحقيق العبودية يحرر الإنسان من رق الطواغيت والعبودية لغير الله[٤]، ويحفظ عقله من تلاعب شياطين الإنس والجن الذين يفسدون عليه أخلاقه وتربيته، لينحرف عن دينه الحق.

المطلب الخامس: تحقيق العبودية أساس النهضة.

يقرر الدوسري قاعدة تربوية مهمة في بناء المجتمعات مؤكدا أنه بتحقيق العبودية لله تنطلق نهضة المجتمعات، وتكون نهضة صالحة تبنى على التربية القرآنية، يقول الدوسري: "عبودية الله الحقة أساس النهضات الصالحة، لأن حياة أصحابها تكون إشعاعاً من القرآن يتحقق منها جميع أساليب الحرية والعدالة والقوة المادية والمعنوية ونفاذ البصيرة وانطلاق التفكير"[٥].

(١) الدوسري، صفوة الآثار والمفاهيم، ج١، ص٢٥٤-٢٥٥.
(٢) الدوسري، صفوة الآثار والمفاهيم، ج١، ص٦٥.
(٣) الدوسري، صفوة الآثار والمفاهيم، ج١، ص٩١.
(٤) انظر: الدوسري، صفوة الآثار والمفاهيم، ج١، ص٢٩١-٢٩٩، ج٢، ص٤٨٧.
(٥) الدوسري، صفوة الآثار والمفاهيم، ج١، ص٩٢.

ثم يضرب الدوسري أمثلة عملية ويخص منها الشورى كوسيلة لتحقيق التعاون الذي بدوره يقوي أواصر الأخوة ويكون سببًا في القضاء على ألوان العصبيات. وكم نحن في حاجة إلى هذه النهضة المباركة القائمة على تحقيق العبودية، للتخلص من كافة العصبيات، ولإقامة العدل والشورى والإحسان والتعاون على الخير لإسعاد البشرية جمعاء، بقيادتها بالعبودية لله رب العالمين.

المطلب السادس: تحقيق العبودية يحقق الاستقامة والتوازن الداخلي:

فالمسلم في تحقيقه للعبودية يتميز بين أقرانه بالاستقامة والتربية الحسنة، وسلامة العقل عن التأثر بالمؤثرات الخارجية المفسدة لشخصيته النقية التي فطر عليها، يقول الدوسري: "بعبودية الله يحقق العابد شخصيته الأصيلة، وإنسانيته الكاملة التي يتميز بها بين أقرانه بالاستقامة في سيرته، وسلامة عقله وضميره من المؤثرات التي تظهره بمظهر عدم التوازن أو بمظهر الازدواجية"(١). فهو يحقق رغباته وفق شرع الله الذي لا كبت فيه أو رهبانية مبتدعة، كما يفعله رهبان النصارى، ولا انحلال أو تفسخ، كما تقرره التربية المادية الفرويدية، بل وسطية تسعد الإنسانية، فيتربى المرء فيها على الاتزان، ويعيش براحة واطمئنان من خلال تحقيق العبودية.

وهناك نماذج أخرى توسع فيها الدوسري في تفسيره، منها: تحقيق العبودية يقي من الهزيمة الفكرية والنفسية(٢)، وتحقيق العبودية يؤدي إلى التقدمية الصادقة لا الزائفة ويحفظ دعائم المجتمع(٣)، وتحقيق العبودية يقي من الانحطاط الاقتصادي والاجتماعي والسياسي والثقافي(٤). والمقصود هو الإشارة إلى تلك المعالم التربوية التي يزخر بها تفسير الدوسري، والتي بناها على تحقيق العبودية كأساس للتصدي للتحديات الفكرية المعاصرة.

(١) الدوسري، صفوة الآثار والمفاهيم، ج١، ص٩٤.
(٢) انظر: الدوسري، صفوة الآثار والمفاهيم، ج١، ص٢٦٧-٢٨٠.
(٣) انظر: الدوسري، صفوة الآثار والمفاهيم، ج١، ص٣٢٥-٣٣٣.
(٤) انظر: الدوسري، صفوة الآثار والمفاهيم، ج١، ص٣٤٣-٣٤٨.

الفصل الثالث: أسس استقلالية الشخصية الإسلامية

يولي الدوسري استقلال الشخصية الإسلامية عناية خاصة في تقريراته التربوية الإيمانية التي في اعتقاده تحرر الشخصية الإسلامية وتعطيها استقلالها لمواجهة التحديات الفكرية، ويقرر أن الله العليم الحكيم حصر تحرك المؤمنين وفق مدلول ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ .. لأنه يعلم أن المسلم المؤمن بالله يجد تحديات عصرية قريبة منه أو بعيدة.."[١].

ثم يؤكد أنه لا بد للمسلم أن يواجه هذه التحديات بشخصية إسلامية متحررة مستقلة، تحصر استمدادها لهداها في وحي الله، وإلا فإنها ستتأثر بهذه التحديات وتكيف الحياة على نسقها، وبالتالي تحصل فجوة بين الاعتقاد الديني والسلوك الحياتي، بل يرى الدوسري أن الأمر أبعد من ذلك؛ لأنه -كما يقرر- تحصل فجوة أخرى بينه وبين طبقات جنسه من المنهزمين نفسيًّا وفكريًّا أمام هذه التحديات، فيتزعزع بنيان المجتمع المسلم بسبب ذلك، خصوصًا مع النشاط الماسوني المحموم الذي يجعل المنهزم من المسلمين يعيب على المتحفظ، فلا بد إذن من انطلاق الشخصية الإسلامية متحررة من تلك التحديات، ولا يمكن ذلك كما يقول الدوسري: ".. إلا بحركة روحية صحيحة منبعثة من حب الله وتعظيمه وحب المصطفى -صلى الله عليه وسلم- وتعظيمه بكل صدق وإخلاص، وقوة يتحقق بها مدلول ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فلا يكفي لتحرير قلب الإنسان وعقله قوته المادية، ولا تفوقه العسكري، ولا تحصيل الاستقلال السياسي لأرضه.."[٢].

لا يكفي ذلك كله -كما يقرر الدوسري-، ولا يكون به الاستقلال الفكري، لأن الخالي من روح الله مهما كانت قوته المادية لا بد أن تؤثر فيه تلك التحديات بغزوها الفكري، ويذوب معها بالتقليد الأعمى، فتفسد التربية، فلا بد من قوة روحية ترفدها العقيدة الصحيحة، قوة روحية ".. تسخر بما أمامها من العقبات، لا تبالي بالنهر الجارف وتياره، ولا بالجبل الشامخ وأخطاره، ولا بالبحر الزاخر وأهواله، ولا بضخامة الحديد

(١) الدوسري، صفوة الآثار والمفاهيم، ج١، ص٢٤٨.
(٢) الدوسري، صفوة الآثار والمفاهيم، ج١، ص٢٤٨.

والنار ومن يبطش بهما من كبار الدول،.."[1]، وذلك لا يحصل ".. إلا بتحقيق عبودية الله بطاعة أوامره، والوقوف عند حدوده، ومتابعة رسوله في جميع نواحي الحياة، مما تقوم به دعائم المجتمع على أحسن أساس وأكمل نظام، ويحصل به التمييز على أعدائه، فينال مدد الله وحصانته التي لا يغلبها غالب، وبدون ذلك يعود الإنسان إلى المادية، فيكون هلوعاً قلقاً خائفاً مذعوراً تحييه المادة حياة بهيمية، وتميته كذلك؛ لأن من نسي الله نسيه فأعماه عن مصالحه الحقيقية،.."[2].

فبتحقيق العبودية يحصل المرء على هذه الشخصية الإسلامية ذات القوة والتربية الروحية، وبها ينتصر المسلم على كافة التحديات المعاصرة، فلا تؤثر به المذاهب المادية التي تنشرها شياطين الإنس، بل ينتصر عليها ويغلبها، ويمكن استخلاص أسس استقلالية الشخصية المسلمة في تفسير الدوسري على النحو التالي:

المبحث الأول: استلهام هداية القرآن:

أبرز الدوسري أهمية الرجوع إلى الله -عز وجل- وكتابه العزيز، واستلهام الهداية والمعرفة منه، وحصر التلقي عليه[3]، وأن ذلك مقتضى العبودية لله رب العالمين، فالعابدين لله يجب أن يقرؤوا القرآن كقراءة الجندي الذي يتلقى كتاب رئيسه ليعمل بمقتضاه وينفذ وصاياه، وعند ذلك تنفتح لهم كنوز العلم والمعرفة، ويضحون في سبيل الله؛ لأن ذواتهم تكيفت بوحي الله الذي انخنست به قلوبهم -كما يعبر الدوسري-، وبذلك يكون هو المحرك لهم والمفجر لطاقاتهم، ".. فإن هذا القرآن لم يجعله الله كتاب قصة وفن أو أدب وتاريخ، وإنما جعله الله ميثاقه العظيم المتين لعباده في الأرض؛ ليكون منهاجا لسيرهم في

(١) الدوسري، صفوة الآثار والمفاهيم، ج٦، ص٦١٠.

(٢) الدوسري، صفوة الآثار والمفاهيم، ج١، ص٢٤٩.

(٣) قال الدوسري: ".. فالله وحده هو مصدر التلقي، فلا يحتكم إلا لكتابه وسنة نبيه، ومن عزلهما عن السياسة وأقصاهما عن الحكم، فقد رفض ألوهية الله رفضًا عمليًا وإن نطق بلسانه خداعًا لنفسه وللناس، فلا ينفعه نطقه بالشهادتين، ما دام ممزقًا للوحيين -الكتاب والسنة- تمزيقًا معنويًا، وهو أفظع وأبشع من التمزيق الحسي.". الدوسري، صفوة الآثار والمفاهيم، ج٤، ص٧٢. وانظر: ج٧، ص٣١٦، ص٥١٤. الدوسري، للحق والحقيقة، ص٢٣.

جميع ميادين الحياة.."[١].

وبيّن الدوسري أهمية توجيهات القرآن وأنها هي التي توصل إلى القيادة العالمية؛ حيث قال: "ولو أن المؤمنين ظلوا يستشيرون قرآنهم ولا يخالفون توجيهاته السياسية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية لكانوا من القيادة العالمية في القمة، كحال أسلافهم المستمسكين بالكتاب. ولكنهم نسوا حظا مما ذكروا به، بل اتخذوا القرآن مهجورًا،.."[٢]، وأشار -في السياق نفسه- إلى أن من أسباب هجرهم لتوجيهاته ما استزلتهم به الحركات الماسونية، فأصبحوا يتطفلون على بضائع الأعداء الأرضية، ويتركون التوجيهات العلوية الربانية، وهو ما قرره في موضع آخر؛ إذ يقول: ".. وكل من لم يرضَ بشريعة الله يبتليه الله بتشريعات بشرية دنيوية فاسدة، لا تحفظ له مالا ولا عقلا ولا عرضًا ولا شرفًا وكرامة ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾."[٣].

كما حذّر من مشابهة أهل الكتاب في ترك إقامة الدين، فعند تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٦٨] قال الدوسري: "هذا وإن العبرة للمؤمنين في هذه الآية أن يعلموا أنهم لا يكونون على شيء من دينهم يُعتد به حتى يقيموا القرآن ويهتدوا بهدايته، حتى لا يشابهوا أهل الكتاب،.."[٤]، وقال في موضع آخر: "ولا نجاة للمسلمين حتى يقيموا القرآن بالتطبيق العملي، وكفاهم ما أصابهم من أنواع الخزي والويلات وتسلط الأعداء، وإلا فليرتقبوا المزيد."[٥].

واعتبر أن تدبر القرآن يؤدي إلى الوقاية من الغزو الفكري، فقد ذكر في فوائد قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾[النساء: ٨٢]، أنه "يؤخذ من هذه الآية الكريمة وجوب تدبر القرآن، وعدم جواز ترك التدبر، لأن فيه تعطيلا

(١) الدوسري، صفوة الآثار والمفاهيم، ج١، ص١٦٠-١٦١.
(٢) الدوسري، صفوة الآثار والمفاهيم، ج٨، ص٢٦٩، وانظر: ج٩، ص١٢٩.
(٣) الدوسري، صفوة الآثار والمفاهيم، ج٧، ص٤٨٣. وانظر: ج٧، ص٤٨٢.
(٤) الدوسري، صفوة الآثار والمفاهيم، ج٩، ص١٤٩.
(٥) الدوسري، صفوة الآثار والمفاهيم، ج٦، ص٤٧٥.

للعقل والمواهب، وهذا جناية من الإنسان على فطرته، وعلى حقيقة شخصيته بهذا التفريط الذي سيكون فيه عرضة للدجل وخطر الإلحاد، ويكون فريسة لأنواع الغزو الفكري،.."[1]، وقال في موضع آخر: "نعم إن وحي الله العزيز هو المنجي الوحيد والعاصم الفريد من جميع الأفكار الهدامة التي تفاقم شرها في هذا الزمان، وعصفت بالاستقلال الفكري لكثير من الناس، وصادرت عقولهم بسبب فراغها من وحي الله الذي يحميها ويعصمها منهم،.."[2].

في تفسيره لقول الله سبحانه: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ١٠٣]، يقول الدوسري مبينًا الطريق للتخلص مما خططته الماسونية اليهودية: ".. فما على الأمة إلا السعي الصحيح لتحقيق الإيمان الذي أبعدها عنه الثقافة اليهودية الماسونية، التي ركزها الاستعمار بجميع أنواعه،.."[3].

كما ذكر الدوسري عند قوله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١٥]، أن المراد بالنور هنا ثلاثة أمور: النبي محمد -صلى الله عليه وسلم-، والإسلام، والقرآن، ولكنه ضعّف القول الثالث؛ لأن العطف يقتضي المغايرة، وقد عُطف النور على الكتاب، ثم قال مبينا أهمية الاستهداء بنور القرآن: "ووجه تسمية الإسلام ورسوله وقرآنه نورًا: هو أن هذه الثلاثة للبصيرة كالنور للبصر، فلولا النور الحسي لما أدرك البصر شيئًا من المبصرات، ولولا ما جاء به محمد من الإسلام والقرآن من النور المعنوي العظيم ما أدرك ذوو البصيرة من أهل الكتاب ولا من غيرهم حقيقة دين الله،.. -إلى أن قال-: لقد كان نور القرآن هو السراج الوهاج الذي استنارت به الأمم في ظلمات الجاهلية، وتحررت من الخرافات والأوهام، وتحررت من رق الطواغيت،.."[4].

فنور القرآن وهدايته هي السبيل لمواجهة الانحرافات الفكرية؛ لأن نور القرآن يبدد ظلمات الاستغفال التي يحرص على بثها المنافقون، ويحرر العقل من شبهات الكيد التي يحرص

(١) الدوسري، صفوة الآثار والمفاهيم، ج٦، ص٧٣.
(٢) الدوسري، صفوة الآثار والمفاهيم، ج٣، ص١٣٤.
(٣) الدوسري، صفوة الآثار والمفاهيم، ج٢، ص٣٦٨.
(٤) الدوسري، صفوة الآثار والمفاهيم، ج٨، ص٣٣١-٣٣٣. باختصار.

على زرعها المبطلون، وهو سبيل النصر، والعاصم بإذن الله من حملات الغزو الفكري، أما التشبه بأهل الكتاب في عدم إقامته، وانطفاء ذلك النور من نفوس المسلمين فهو أعظم خسارة تُبعدهم عن القيام بدورهم العالمي في قيادة الركب، وقد تحسّر الدوسري من حصول ذلك؛ حيث قال: "فما أعظم خسارة المسلمين عامة والعرب خاصة بإغفالهم كتابهم وانحرافهم عنه، مما جعلهم بعد السيادة والقيادة في رق معنوي وسكر معنوي يتردون بسببه في انحطاط خلقي سحيق وسبات من التقليد عميق، وما أعظم خسارة العالم كله بإضاعة العرب والمسلمين مملكة الرحمن وهدي القرآن الذي شرفهم الله به.."[١].

ويعود اهتمام الدوسري في قضية الرجوع إلى القرآن كطريق لمواجهة التحديات الفكرية المعاصرة؛ لأسباب متعددة، منها: أن الله أودع في القرآن: ".. ما يبني الإنسانية بناءً محكمًا لا يتصدع أبدًا ما دام هو الرباط الحديدي المعنوي المشتبك فيه؛ لأنه أمدّ أهله بجميع عناصر القوة في الحياة..."[٢]. ومنها: أن الأمة ".. لا تحقق شخصيتها، ولا غاية وجودها في الأرض إلا إذا تميزت باستقلالها الروحي المنحصر وجوده واستمداده من وحي الله، والذي يبرزها بين الأمم بتصورات ربانية منبثقة من وحي رب العالمين، تترجم تلك التصورات إلى أعمال رائعة في غاية الصلاح والإصلاح، تكون بهما الأسوة الحسنة لجميع الأمم.."[٣] كما حذّر في السياق ذاته من الهزيمة الروحية الناتجة من الابتعاد عن المنهل الأصيل وهو القرآن الكريم، ومنها: "شدة حاجة الأمة إلى توعية القرآن وإرشاده وتحذيره من خصوم المسلمين في العقيدة.."[٤]. ومنها أن الله قد جعل ".. الماء سبب الحياة النباتية والحيوانية، وجعل الشريعة سبب الحياة الروحية الإنسانية"[٥].

هذا وأشار الدوسري في تفسيره إلى أربع قواعد عظيمة لصيانة المسلمين عن همزات شياطين الإنس والجن، استقاها من قوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا

(١) الدوسري، صفوة الآثار والمفاهيم، ج٣، ص١٢٧. وانظر: ج٣، ص١٣٢.
(٢) الدوسري، صفوة الآثار والمفاهيم، ج٣، ص١٣٧.
(٣) الدوسري، صفوة الآثار والمفاهيم، ج٤، ص٢٤١.
(٤) الدوسري، صفوة الآثار والمفاهيم، ج٤، ص٢٤٣-٢٤٤.
(٥) الدوسري، صفوة الآثار والمفاهيم، ج٨، ص٥٢٠.

تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ۚ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢ - ١٠٣]، وهي كالتالي[١]:

القاعدة الأولى: وصية المؤمنين بالمبالغة بتقواه، وذلك باتباع وحيه، والاقتداء بنبيه، وحصر التلقي للهداية والثقافة على ذلك.

القاعدة الثانية: الاستقامة والثبات على دين الله، بأن يجعل حياته كلها لله رب العالمين، ولا يسمح لشياطين الجن والإنس أن يستلبوا منها شيئًا.

القاعدة الثالثة: الاعتصام بكتاب الله جميعا عن التفرق، لا بغيره من الكتب والمصطلحات الماسونية، وبذلك يكون التجمع الصحيح القائم على التصور الديني لجميع مناهج الحياة، لا التصورات الجاهلية التي جددتها الماسونية بألقاب وشعارات خداعة.

القاعدة الرابعة: تذكر نعمة الله العظيمة: الإسلام، الذي أنقذهم الله به من الجهالة، وحرر عقولهم من الخرافات والأوهام، فتذكر نعمة الله العظيمة بهذا الدين، يحمي أهله من الإصغاء إلى همزات شياطين الإنس من اليهود وأذيالهم المنافقين والمنخدعين بهم.

ثم ختم الدوسري هذه القواعد بالتحذير من الغفلة عنها، حيث قال: "فإذا غفل المسلمون عن هذه الركائز الأربعة وتساهلوا كانوا عرضة للغزو الفكري الذي يزعزع عقيدتهم، ويذهب بوحدتهم، ويزلزل كيانهم أو يقضي عليه، وقد جعل الله في هذه الركائز سر بقاء الأمة الإسلامية مع ما يحصل عليها من ضعف وتصدع وتفرق، بحيث تكون انطلاقتها من كبوتها سريعة، وتآلفها قريبا بإذن الله."[٢].

وقد ذكر الدوسري كيف أن استلهام هداية القرآن هي العصمة والعلاج من الهزيمة النفسية والفكرية التي هي أخطر من الهزيمة العسكرية، في مواضع متعددة من تفسيره لا يسع المقام لنقلها.[٣] وقد تبيّن فيما مرّ معنا أهمية جعل القرآن هو محور ومركز الانطلاق

(١) انظر: الدوسري، صفوة الآثار والمفاهيم، ج٤، ص٢٤٧-٢٥٢.
(٢) الدوسري، صفوة الآثار والمفاهيم، ج٤، ص٢٥٢.
(٣) الدوسري، صفوة الآثار والمفاهيم، ج٤، ص٣٢٦، ٣٣٦-٣٣٧، ٣٣٩، ٣٤٣، ٤١٣-٤١٤.

في مجابهة أخطار الانحرافات الفكرية، وأننا بدون ذلك نكون كالأيتام على موائد اللئام.

المبحث الثاني: الاعتزاز بالدين، والاكتفاء بهدايته:

وفي سبيل رفع مستوى الاعتزاز بالدين، يذكر الدوسري مصطلحات جميلة، منها: تصدير الصناعة وتصدير الهداية، وينطلق الدوسري في هذا المصطلح من رؤيته لضرورة التمسك بالاستقلال الديني والفكري، وبالخصوصية الثقافية، مما يجعلنا أمة التصدير لا أمة الاستيراد[١]. فقد حرض الدوسري المسلمين على الاتجار والمعاملات الحرة والتنافس في الأمور الدينية والدنيوية مع حملهم للرسالة وإظهارهم للدين، وربط بين التصديرين فقال: ".. وينشطون في الاستيراد والتصدير.. كما ينشطون بالتفنن في كل صنعة وتأسيس الشركات وتدشين المصانع المختلفة لهذا الغرض الذي يغنيهم عن الاستيراد من عدوهم أو من غيره، ويجعلهم أمة التصدير للإنتاجات الصناعية، كما أنهم أمة التصدير للهداية الروحية للبشر، بل هدفهم الكامل بالتصدير الأول هو تحصيل التصدير الثاني."[٢].

فيربط الدوسري تجارة المسلمين بالتجارة الأعظم، التجارة الروحية لبناء السلوك الإنساني الصحيح، بل يجعل التفاني في التجارة الأولى إنما هو طريق ولبنة للوصول إلى التجارة الأعظم، تصدير الهداية للعالم، فشعور المسلم بهذه المهمة الجليلة، والمسؤولية العظيمة، يقوم سلوكه للوصول إلى هذا الهدف العظيم.

كما يبث الدوسري في نفس المسلم الاعتزاز بهذا الدين والفخر به، وأنه دين صالح لكل زمان ومكان، ويرد على من يزعمون عدم صلاحيته، وأن الشريعة الإسلامية جاءت لعصور الحمير والجمال المتخلفة لا إلى عصور الحضارة[٣]، ويذكر أن هذه الشبهات ناشئة من المخططات الماسونية اليهودية وهي تخالف الإسلام وتناقضه من أساسه[٤]، كما ذكر أن سبب رواج أمثال هذه الشبهات هو الانخداع بالثورة الفرنسية التي تعتبر أن الدين لا

(١) الدوسري، صفوة الآثار والمفاهيم، ج٣، ص٥٩٩.
(٢) الدوسري، صفوة الآثار والمفاهيم، ج١، ص٣٤١.
(٣) انظر: الدوسري، صفوة الآثار والمفاهيم، ج٩، ص١٨١.
(٤) انظر: الدوسري، صفوة الآثار والمفاهيم، ج٦، ص٢٤١، ج٨، ص٣٤-٣٦، ١١٢-١١٣.

يصلح للحكم، ويعادي العلم، فلم يفرق المنخدعون بين حكم الإسلام والكنيسة[1].

وقد رد على تلك الفرية بتقرير صلاحية هذا الدين لكل زمان ومكان، وذلك أثناء مقارنته بين الدين الإسلامي وبين دين الكنيسة المحرف: ".. فالدين الإسلامي الصحيح هو صالح مصلح لكل عصر وزمان، وهو يساير التطور الصحيح: التطور في الصنائع والاختراعات، والتطور بأنواع الزينة والجمال الذي هو مظهر من مظاهر نعم الله، والتطور في المسابقة إلى العلم النافع واستعمال العقل والقوى والمواهب، والتطور بأنواع القوة الحربية الرادعة للأعداء" [2].

وقد جاءت ردود الدوسري التفصيلية على هذه الشبهة في مواضع متفرقة من تفسيره، يمكن إجمالها في الأوجه التالية:

الوجه الأول: أن في هذا القول طعنا بالله وألوهيته، وإنكارا لعلمه وحقيقة أسمائه وصفاته، وتنديدًا بحكمته؛ لأن مقتضى هذا القول: أن الله ليس عليمًا ولا حكيمًا ولا رحيمًا ولا خبيرًا، وأن علمه قاصر عن متطلبات العصور المتجددة.[3]

الوجه الثاني: أن ".. فصل الدين عن الدولة يؤدي إلى الاستدراك العملي والاعتقادي على الله، ولو لم يتلفظ به صاحبه تصريحًا ففعله شاهد عليه بذلك ومترجمًا عما في قلبه،.."[4].

الوجه الثالث: أن البشرية مهما تطورت وتقدمت فإن طبائعها الأصلية التي ركبها الله فيها لا تتغير، بل "ليس لعصر من العصور طبائع ما ضد الدين، فالعصور واحدة ولكنها الطبائع البشرية التي تضيق ذرعا بالتكاليف مهما كانت صغيرة،.. "[5]، والحقيقة أن هذا التقدم المزعوم والمدنية المجلوبة من الكفار قد تسببت بالخواء الروحي وزيادة الشرور، مما أدى

(١) انظر: الدوسري، صفوة الآثار والمفاهيم، ج٦، ص٤٩١.
(٢) الدوسري، صفوة الآثار والمفاهيم، ج٢، ص١٠٣.
(٣) انظر: الدوسري، صفوة الآثار والمفاهيم، ج٥، ص٥١١، ج٦، ص٥٦٤، ج٧، ص٣٢٧.
(٤) الدوسري، صفوة الآثار والمفاهيم، ج٧، ص٣٣١.
(٥) الدوسري، صفوة الآثار والمفاهيم، ج٢، ص١٠٣.

إلى فقدهم للمقومات العاصمة لهم من اقتراف المعاصي والجرائم، ففسدت ضمائرهم.[١]

الوجه الرابع: أن الشريعة التي جاء بها سيد المرسلين -صلى الله عليه وسلم- ليست مواعظ تُلقى وآيات تتلى فحسب، بل لا بد لها من سلطان يحرسها ويقوم على تنفيذها، بعكس ما يزعمه العصريون تلاميذ الماسونية، فهذه الشريعة تلامس قلوب المؤمنين وتلهب مشاعرهم وتحرك جوارحهم لتنفيذها، وليس تنفيذها خاصًّا بوقت دون وقت، أو مكان دون مكان، ولذلك أقام لها رسول الله -صلى الله عليه وسلم- دولة وسعى لتنفيذها ونشرها[٢]. وفي هذا ينبّه الدوسري فيقول: "ينبغي التأمل في إضافة الله الدين إلى عباده المؤمنين، وذلك لأنهم هم القائمون به والمقيمون له، فأضافه إليهم بقوله: ﴿أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾"[٣].

الوجه الخامس: أن التقدم الحقيقي هو في دين الإسلام الذي لا يزيده مرور العصور إلا تجددًا، وأن المسلمين يملكون ما هو أعلى وأغلى من هذه الفتوحات العلمية المادية، إنهم يملكون هذا الدين العظيم الذي "تُسَيِّرُ به الأمم المادية مصنوعاتها وتُقيم حضارتها على أساس متين من العقيدة والأخلاق تتغير به الأوضاع الملعونة التي شقي بها العالم شقاء لا سعادة معه أبدًا."[٤]، بل إن الإسلام يحتوي على جميع عناصر القوة، وفي أصول تشريعاته حكمة ومرونة يحل بها جميع المشاكل مهما تجددت مع احتفاظه بحيويته واستقلاله التام[٥]، التام[٥]، وبذلك يرتقي الدوسري بالمسلم إلى الشموخ بما عنده من دين ينقذ به البشرية جمعاء من أمراضها وأدوائها، فانتقل الدوسري من دور المتهم الذي يدافع عن نفسه، إلى المهاجم الواثق بما عنده من دين وعقيدة يسعد بها الإنسانية كافة، وليس المسلمين فقط.

الوجه السادس: أن تشريعات الله الحكيم، والعليم بمصالح عباده وبخفايا نفوسهم، لا تتفق مع الحضارة الفاسدة التي تشيع الفاحشة، ولا مع الذوبان العقائدي والانحلال

(١) انظر: الدوسري، صفوة الآثار والمفاهيم، ج٥، ص٥١٢.
(٢) انظر: الدوسري، صفوة الآثار والمفاهيم، ج٥، ص٥١٣. وانظر: ج٦، ص٤٩٨.
(٣) الدوسري، صفوة الآثار والمفاهيم، ج٨، ص١١٦.
(٤) الدوسري، صفوة الآثار والمفاهيم، ج٥، ص٣٨.
(٥) الدوسري، صفوة الآثار والمفاهيم، ج٤، ص١٩١.

الأخلاقي والأهواء.[1]

الوجه السابع: أن الدين الإسلامي دين متكامل يتجاوب مع الفطرة البشرية ومتطلباتها، ويلبي احتياجاتها، وتصميمه في تشريعاته يوافق تصميم النفس البشرية، وتكوينه يوافق تكوينها، وأن الداخل في هذا الدين يجد فيه من الجمال والتجاوب والتناسق والأنس والراحة ما لا يعرفه في غيره، فيكون ضميره في أمان واطمئنان من الصراعات الداخلية.[2]

ويلاحظ الباحثان أن ردود الدوسري على هذه الشبهة جاءت متناثرة في مواضع من تفسيره، مما يدل على اهتمام الشيخ بشبهاتهم، ومحاولته للرد عليهم ومعالجة إشكالاتهم من خلال ربطها بآيات متعددة من الكتاب العزيز حسب المقام، فيصقل بذلك الشخصية المسلمة ويرتقي بها إلى الاعتزاز بالدين، والفخر بأحكامه التي يسعى لنشرها لينقذ العالم مما ألم به من ماديات وأنانيات عصفت بالسلوك الإنساني، وهوت به إلى السلوك الحيواني.

المبحث الثالث: أسلمة العلوم:

وهو ما يسميه بعض المعاصرين: (إسلامية المعرفة)، وقد أشار الدوسري إلى أسلمة العلوم حين تحدث عن تحقيق العبودية القائمة على صحة العقيدة، فقال: "ولا تتم عبادة الله إلا بصحة العقيدة التي ترسم له أهدافًا أكبر من ذاته، وأعم من فكره، وأبعد من حاضره القصير، وأرفع من واقعه، وتربطه بذات علوية لها عليه رقابة محيطة، وسيطرة تامة...، هذه العقيدة تجعله لا يخرج على عبودية الله لحظة واحدة في أي حالة،.. وتجعله يُخضع جميع النظريات والعلوم لوحي الله، ويكيفه به، ولا يعكس الأمر شأن الماديين المبتعدين عن عبادة الله في هذا الزمان."[3]

وتحدث عن موقف المسلم من المخترعات الحديثة محذرًا من الجمود والسلبية اللذين يفسحان المجال لإفساد العقيدة والأخلاق من قبل الأعداء، وأنه يجب عليه أن يكون إيجابيًّا وحاضرًا في كل مواقع الحياة، بل "يسابق أعداءه في كل صنعة، واستثمار وتكتل

(١) انظر: الدوسري، صفوة الآثار والمفاهيم، ج٥، ص٤٧٧.

(٢) الدوسري، صفوة الآثار والمفاهيم، ج٩، ص٣٦٩-٣٧٠.

(٣) الدوسري، صفوة الآثار والمفاهيم، ج١، ص٢٢٥. باختصار. وانظر: الدوسري، للحق والحقيقة من كلام خير الخليقة، ص٢٤.

وانطلاق، ويبادر لاستلام كل آلة وكل مخترع، ليصرفه التصريف الصحيح حسب المنهج الإسلامي، ويكيفه بوحي الله ومرضاته، ولا يقف منه موقف السلبية، فيكون من حظ أعداء الله، يسيرونه وفق أغراضهم،.."[١]، لأن هذه السلبية وهذا الانزواء يفسح المجال للأعداء بتسلم القيادة بعد تقهقر المسلمين عنها بسبب هذا الجمود، كما أن عند المسلمين من الرصيد الكافي والمنهج الصافي والمعين الذي لا ينضب ما يستطيعون به إصلاح المجتمعات وتكييفها بالوحي الموافق للفطرة والمتماشي مع العلم وتطوره.

ولا يمنع هذا الرصيد والمنهج من الاستفادة مما لدى الغرب من العلوم النافعة دون التأثر بشوائب الإلحاد والفساد، وذلك يكون -كما يرى الدوسري- بتمحيص هذه العلوم المستوردة وانتقاء ما يناسبنا منها، ".. وأن نبني تطورنا ووسائل نهضتنا على العقيدة الإسلامية التي تشجع على نقل العلوم التجريبية بدلا من استيراد الإلحاد والفساد تحت ستار كتب الأدب الأجنبي والفلسفة والتربية وغيرها مما تكيف بالتربية اليهودية لغير اليهود"[٢].

ففي أكثر من موضع يؤكد الدوسري أن السياج الآمن للعلوم المادية يكون بتحقيق العبودية لله رب العالمين، حيث إنها لا تعطل العقل عن التفكير في الماديات والاستفادة منها، بل تدفعه إلى ذلك، ولا تمنع من مواصلة البحوث العلمية في كافة الميادين، ولكن تشترط أن تكون تحت قيادتها، وأن تلزم حدود الله، حتى لا يفقدوا الاستقامة ويضلوا الطريق ويبددوا الطاقات، ولا ينحدروا بالفطرة إلى ما يصادم الإنسان وحاجاته الروحية، وبذلك يكون هذا الإطار الإسلامي العقدي واقيًّا لهم من الغزو بالفتح العلمي -كما عبّر الدوسري-، ".. فمعبودهم -جل جلاله- لا يريد منهم تعطيل العقل، وإنما يريد منهم حفظه بإطار حدوده عن التخبط في المزالق والتردي في الهاوية، فالدين للعقل كالقواعد للفقهاء والحكام، لا تقيد سلطتهم بالكلية، ولكن تضبطها عن الظلم والجموح."[٣].

فمن المعالم المهمة التي ذكرها الدوسري أسلمة العلوم، وتمحيصها بالإطار العقدي الإسلامي، لتتناسب مع ديننا وأخلاقنا ومفاهيمنا، وهذا الإطار الإسلامي العقدي ينطلق

(١) الدوسري، صفوة الآثار والمفاهيم، ج١، ص٢٢٩.
(٢) الدوسري، اليهودية والماسونية، ص١٦٩.
(٣) الدوسري، صفوة الآثار والمفاهيم، ج١، ص٢٥٠-٢٥١. وانظر: ج١، ص٢٣٧-٢٣٨.

من قراءتين -كما قسّمها الدوسري-: قراءة الكون، وقراءة القرآن، وقد ذكر العلاقة بينهما[1]، فقال معللا التفكر بآيات الله الكونية: ".. لأن لله سبحانه كتابين: كتابًا مخلوقًا وهو الكون الهائل العظيم، وكتابًا مترلًا من عنده سبحانه وهو القرآن، وهذا الكتاب المترل يرشدنا إلى فهم الكتاب الكوني المخلوق وطريق العلم بعجائبه، فإن هذا الكون هو كتاب الإبداع الإلهي المفصح عن وجود الله وعن كماله وجلاله وجماله،..."[2].

فإذن هذه القراءة الكونية تفيدنا دلائل حسية على توحيد الله -عز وجل- وتزيد من إيماننا، وقد حصر الدوسري هذه الدلائل المنبثقة من قراءة الكون بقوله[3]: ".. فإن دلائل التوحيد محصورة في قسمين: أحدهما: دلائل الآفاق. الثاني: دلائل: النفس."[4]

وكمثال للجمع بين القراءتين وأسلمة العلوم، أشاد الدوسري بمحاولة بعض المفسرين؛ حيث استنبط المفسر من قوله تعالى: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾ [النازعات: ٣١] أن الله ينشئ الماء من تبخر الأرض والبحار بالشمس، وعلل تصرف المفسر بأنه: ".. لما تفاقم شر الجغرافيين الذين يؤلفون ويدرسون حكاية المطر ومنشأه التبخري بصيغة ناشفة خاوية من الروحانية ليس لله فيها ذكر أبدا، كان على المسلمين أن يقابلوهم بما يثبت أن المسبب لذلك هو الله، وأن المؤثر فيه هو الله،.. وعندئذ ينطبع القارئ والطالب بطابع العقيدة الروحية."[5].

---

(١) كما أشار في موضع آخر إلى أهمية الجمع بين الذكر والفكر، وأن الفكر لا يفيد بدون الذكر. انظر: الدوسري، صفوة الآثار والمفاهيم، ج٤، ص٤٧٥.

(٢) الدوسري، صفوة الآثار والمفاهيم، ج٢، ص٥٠٣. كما ذكر قبلها بصفحة أن المخلوقات الكونية: ".. صحائف آيات وكتب دلالات على ما أخبر الله به عن نفسه من وحدانيته واستحقاقه لكامل العبادة،..".

(٣) وذلك في معرض تفسيره قول الله عز وجل: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١].

(٤) الدوسري، صفوة الآثار والمفاهيم، ج٤، ص٤٧٥. وقد بيّن الدوسري أن دلائل الآفاق أجل وأعظم من دلائل النفس مستدلًا بقوله تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧]. كما ذكر في موضع آخر مجموعة من الآيات الآفاقية مبينا طريق القرآن في الجمع بين المسائل الاعتقادية والأدلة العقلية، انظر: الدوسري، صفوة الآثار والمفاهيم، ج٢، ص٤٨٩-٥١٠.

(٥) الدوسري، صفوة الآثار والمفاهيم، ج٢، ص٤٩٥-٤٩٦.

المبحث الرابع: ربط المنهج التربوي بالعقيدة الإسلامية وقيمها:

فالعقيدة الصحيحة: ملة إبراهيم، لها دور كبير في وحدة المسلمين، وتميزهم العقائدي واستقلالهم الثقافي، قال الدوسري: "ملة إبراهيم تحفظ لأهلها قيمتهم وكرامتهم بين الأمم، لأنهم بتميزهم العقائدي واستقلالهم الثقافي ومنهجهم الأخلاقي ووحدتهم الدينية لا ينصهرون في بوتقة غيرهم،.."[(١)]، وهذا يتطلب منهم الانعزال المعنوي؛ فهم يخالطونهم ولكن مع التميز الفكري والتباين الأخلاقي، فلا يتأثرون بالمناهج المادية التي تبثها الماسونية، ولا يركنون إليها، وإذا لم يفعلوا ذلك فهم في حالة انتحار معنوي وسقوط حسي -كما عبّر الدوسري-.

ويعلل الدوسري هذه الحالة من الانتحار المعنوي والسقوط الحسي بفقدان العقيدة؛ حيث يقول: "إذ بفقدانها لا يصلح ضمير ولا تحسن أخلاق، بل ولا يحصل الاتزان العقلي والتفكير الصحيح، بل تضطرب التصورات، وتتجسم الأنانيات، وتتأجج نيران الشهوات، ويكون الناس بين شح مطاع وهوى متبع، فتتفاقم الشرور ولا تحظى الشعوب بقيادة توجهها إلى الخير، أو ترسيها على قواعد السلامة."[(٢)]، ويقول في موضع آخر: "فقد العقيدة موجب لضعف النفس، بل موجب لسقوطها، كما هو موجب لفساد التصور والتخبّط في التفكير."[(٣)]. كما قرر أن قوة العقيدة هي التي تجعل المرء يستجيب لأوامر الله ونواهيه[(٤)].

(١) انظر: الدوسري، صفوة الآثار والمفاهيم، ج٦، ص٥٠٨-٥٠٩، ٥١٥-٥١٦.
(٢) الدوسري، صفوة الآثار والمفاهيم، ج٩، ص١٥.
(٣) الدوسري، صفوة الآثار والمفاهيم، ج٩، ص٩. وانظر: ج٩، ص١٢، ١٤، ١٦.
(٤) انظر: الدوسري، صفوة الآثار والمفاهيم، ج٩، ص٢٨٢.

ولذلك أخشى ما يخشاه الأعداء: تمسك المسلمين بالعقيدة الصحيحة التي هي الأصل في تحريك السلوك[1]، يقول الدوسري: "..فإن جميع الكفار لا يقيمون وزنًا ولا ينذعرون إلا من أهل ملة إبراهيم، ولذلك يضعون جميع العراقيل أمام انبعاثهم، ويسعون لتحطيمهم، ويشجعون أهل البدع الدينية والمادية ضدهم.."[2]؛ لأنهم إذا أفسدوا عقائدهم فسدت أخلاقهم وضمائرهم، ".. فكل من لم تصلح عقيدته لا بد أن يفسد ضميره مهما ادعى.."[3].

(١) قال الدوسري: "إن الذي تقبح تصوراته في الأصول تكون في الفروع أقبح". الدوسري، صفوة الآثار والمفاهيم، ج٧، ص٣٣٧. فكذلك من قبحت تصوراته العقدية، فسدت أخلاقه، وانحرف سلوكه.

(٢) الدوسري، صفوة الآثار والمفاهيم، ج٦، ص٥١٢.

(٣) الدوسري، صفوة الآثار والمفاهيم، ج٨، ص٤٩١.

الخاتمة

جاء تفسير الدوسري صفوة الآثار والمفاهيم في آخر أعماله العلمية الحافلة بالبذل والعطاء، لذلك أثبت فيه خلاصة تلك التجربة الغنية بالأفكار التي تذب عن الشريعة في الوقت الذي تقرر فيه خصائصها وما تميزت به. فكان تفسيره عمدة في تقرير الحق وغرس قواعده وأصوله، كما كان حصنًا منيعًا وسدًّا متماسكًا في وجه من رام النيل منه بتحريف أو تشكيك، وقد حاول هذا البحث جمع المتناثر من تلك اللآلئ ليصنع منها عقدا مرصعا لرسم معالم منهج تربوي يمكن للمربين والدعاة ترسمه وتسنمه لغرسه في نفوس الجيل المسلم الصاعد ليكون مصدر اعتزاز بدينهم، وحماية لقلوبهم وعقولهم من سهام المنحرفين الذين يتقصدونهم في قيمهم وأخلاقهم عبر وسائل الكيد المنظم من قبل المنافقين وأسيادهم من أعداء هذا الدين العظيم.

أولا: من أهم نتائج هذه الدراسة:

١- تحقيق العبودية بمفهومها الشامل هو سبيل النجاة من كافة الشرور، وفيه الوقاية للفرد والمجتمع من الانخداع بما يروجه ويبثه شياطين الإنس بوسائلهم المتنوعة من المذاهب الهدامة المفسدة للعقيدة والسلوك.

٢- قيام التربية على أساس العقيدة هي قاعدة الانطلاق لسلوك المسلم وأخلاقه، وهو الذي يحرس البيئة المجتمعية من تسلل الشياطين بجميع ما يبثونه وينشرونه من وسائل تثير الشهوات، وتنثر الشبهات.

٣- أعظم ما يحرك سلوك الإنسان هو الوازع الديني، والإيمان بالغيب، بخلاف من تقوم سلوكياتهم على التربية المادية؛ لأنه إذا بنى المرء سلوكه على الماديات حركته الأطماع والأنانيات والمصالح الشخصية، فتجده يفتك بالآخرين بلا رحمة لتحقيق المصالح الشخصية. وهذا هو الفرق بين التربيتين: الإسلامية والمادية.

٤- القيام بالدعوة ونشر العقيدة زيادة على ما فيه من نفع الناس، وتحريرهم من رق العبودية، فإن فيه وقاية لصاحبه، فهو خير مشغل عن الغزو الفكري.

٥- الصلاة هي الغذاء الروحي للمسلم، وهي أهم الروافد في تشكيل شخصيته، وإمداده بالقوة الروحية.

٦- لا بد للمسلم أن يواجه التحديات الفكرية بشخصية إسلامية متحررة مستقلة، تحصر استمدادها لهداها في وحي الله، وإلا فإنها ستتأثر بهذه التحديات وتكيف الحياة على نسقها، وبالتالي تحصل فجوة بين الاعتقاد الديني والسلوك الحياتي.

ثانيا: التوصيات:

١- يوجد في تفسير الدوسري مادة علمية مناسبة عن أصول المنهج التربوي الإيماني في مواجهة التحديات الفكرية المعاصرة تصلح أن تجمع وتطبع في كتاب مستقل لتعم الفائدة.

٢- تشجيع الباحثين على دراسة المفاهيم العقدية التي ركّز عليها الشيخ الدوسري في تفسيره، ومن ذلك: مفهوم تحقيق العبودية وما يضادها.

ثالثا: المقترحات:

يقترح الباحثان ما يلي:

١- أن تخصص إحدى الجامعات الإسلامية حلقة علمية للتعريف بتراث الشيخ الدوسري، وفق أهداف ومحاور محددة، ويمكن دعوة الباحثين الذين كتبوا عن الشيخ وتراثه.

٢- تطبيق معالم هذا المنهج التربوي المستخلص على طلاب إحدى المؤسسات التعليمية المهتمة بتربية الأجيال المسلمة وفق برنامج علمي تربوي إثرائي للتوصل إلى نتائج عملية تكون صالحة للتعميم والتطبيق في كافة المؤسسات التعليمية الأخرى.

المصادر والمراجع

الكتب:

١- ابن تيمية، أحمد بن عبدالحليم بن عبدالسلام، (١٤١٦هـ/١٩٩٥م). **مجموع الفتاوى**. المدينة النبوية: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف.

٢- ابن تيمية، أحمد بن عبدالحليم بن عبدالسلام، (١٤٢٢هـ/٢٠٠١م). **جامع الرسائل**. ط١. الرياض: دار العطاء.

٣- الحصين، أحمد بن عبدالعزيز الحصين، (١٤٠٥هـ)، **نبذة مختصرة عن حياة الداعية الإسلامي عبدالرحمن بن محمد الدوسري**، بريدة: مطابع شركة السلمان والفريح.

٤- الدوسري، عبد الرحمن بن محمد الدوسري، (١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م)، **صفوة الآثار والمفاهيم من تفسير القرآن العظيم**، ط١. الرياض: دار المغني للنشر والتوزيع.

٥- الدوسري، عبدالرحمن بن محمد الدوسري، (١٤١٤هـ/١٩٩٤م)، **اليهودية والماسونية**. ط١. الخبر: دار السنة للنشر والتوزيع.

٦- الدوسري، عبدالرحمن بن محمد الدوسري، (١٤١٥ه/١٩٩٥م)، **للحق والحقيقة من كلام خير الخليقة**، ط١، جدة: دار المحمدي للنشر والتوزيع.

٧- الطيار، سليمان بن ناصر، (١٤٣٥هـ/٢٠١٤م)، **سيرة الشيخ العلامة عبدالرحمن بن محمد الدوسري**، ط١، الرياض: دار ابن الأثير للنشر والتوزيع.

الرسائل الجامعية

١- الربيعة، محمد بن عبدالله، (١٤١٦هـ)، **منهج الدوسري في تفسيره: صفوة الآثار والمفاهيم**. رسالة ماجستير غير منشورة، كلية أصول الدين، قسم القرآن وعلومه، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض.

٢- سير مباركي، يحيى بن محمد بن أحمد، (١٤٣٠هـ/٢٠٠٨م)، **جهود الشيخ عبدالرحمن الدوسري في توضيح عقيدة السلف والدفاع عنها**، رسالة ماجستير، كلية الدعوة وأصول الدين، قسم العقيدة، جامعة أم القرى بمكة المكرمة.